الفصل الحادي عشر

الوصف في العصر الحديث

شوقي – صبري – مطران – حافظ – العقاد – علي محمود طه –

علي الجارم – أبو شبكة – الأخطل الصغير – خليل مردم بك

ظلت مصر تستمع إلى شعراء الشام والعراق والأندلس فتطرب ولكنها لا تشارك في قول الشعر ، حتى كان القرن الرابع الهجري فانبرى شعراؤها يقولون في الوصف خلال ثلاثة قرون كما قال العباسيون ويرسمون الطبيعة فيعيدون إلى الأذهان صور أبي نواس وأبي تمام والبحتري وابن زيدون وابن المعتز . وهكذا لمعت في مصر أسماء ابن النبيه وابن قلاقس وابن الساعاتي وابن سناء الملك والقاضي الفاضل وابن مطروح ، وظهرت في الأدب العربي أوصاف النيل والرياض حوله ، والسماء والأفلاك ، تستعير من أوصاف المحبوب فتنته وسحره على أساليب العباسيين .

فلما كان العصر الحديث هبت على النيل ريح الغرب وحملت كثيراً من المصريين إلى أوربة ، فسرى في النفوس شعور جديد يدفع إلى حب الأدب العربي وإحيائه بل وتجديده ، لذلك حاول كثير من الشعراء في مصر أن يقلدوا الغرب حيناً في أسلوبه وأغراضه ، وقام أمامهم فريق كبير يحب أن يقلد العباسيين في اللفظ والمعنى ، وكان من وراء هذين الفريقين فئة من الشعراء شقت طريقها إلى شيء من الجديد الطريف ، وتنسم اللبنانيون أريج هذا الشعر فحملوه إلى لبنان وإلى المهجر ، فكانت محاولات في الوصف

والتصوير ، تجارى العصر الحاضر واختراعاته فى كثير من عناوين القصائد ، ولكنها لا تخرج عن المعانى المطروقة إلا فى الألفاظ المجنحة والصور اللفظية الجديدة .

وقد حاول أحمد شوقى فى مصر أن يخص جانباً كبيراً من شعره بالأوصاف كالنخيل والبحر المتوسط والشراع ، فوقع على معانى القدماء ، ثم أراد أن يكتب فى الحيوان فجعل قصصه تقليداً للشاعر الفرنسى لافونتين ، لا تصويراً كما فعل الصنوبرى والسرىّ وكشاجم .

ولقد سعى إلى تصوير الخمر والرقص والربيع والمساجد والكنائس والقصور بعد أن رأى وسمع وسافر إلى باريس ومدريد ، ووقف فى غاب بولونيا وعلى قبر نابليون ومسجد قرطبة ، وضواحى جنيف وأطراف البوسفور ، وراح يرسم ما شاهد ، ولكنه لم يفعل شيئاً جديداً ، فلم يبتعد عن التقليد ولم يتخلص من معانى القدماء وتشبيهاتهم وأوصافهم ، بل أضاف إليها عواطفه الشخصية وأحاسيس نفسه .

فلما تعرض للطيارين الفرنسيين ذكر سليمان وبساط الريح حين وصف الطائرة :

صهوة العزّ اعتلوا تحسبهم ... جمع أملاك على الخيل تسامى
رفعوا لـولبها فانـدفعت ... هل رأيت الطير قد زفّ وحاما (١)
شال بالأذناب كل ورمى ... بجناحيـه كما رعتَ النعاما
ذهبت تسمو فكانت أعقباً ... فنسـوراً فصقـوراً فحماماً
تنبرى فى زرقة الأفق كما ... سبّح الحوت بدأماء وعـاما (٢)

وهى صورة جاهلية فيها الطير والنعام والنسور والصقور والحمام والحوت ،

(١) زف الطائر : رى بنفسه أو بسط جناحيه .
(٢) الدأماء : البحر .

قد اجتمعت لتعبر الشاعر من رسومها ألواناً وأشكالا لهذه الطائرة ، ولولا كلمة لولب وزرقة السماء لحسبنا أنها تجرى بين الحيوان على الأرض . والواقع أن الطائرة تشبه الطير أكثر ما تشبه وقد اخترعت تشبهاً بالطير ، ولكن الشاعر يستطيع أن يتخيل فى رسمها أبعد من هذه الصور الحسيّة المادية الصرف فى القرن العشرين . ولعل عذره فى ذلك أن أحداً من الشعراء لم يخص معمعان هذا الوصف فكان الميدان بكراً . وشأنه فى وصف الطائرة كشأنه فى وصف السفن والسيارات وغيرها .

وإسماعيل صبرى وصف النيل والبرق والسحاب والدواة والشيب ، والثعلب والغراب ، ولكنه جعلها فى رسوم العباسيين ، تأخذ من الحيوان والجنان والأشجار ؛ فقد قال فى البرق إنّ سناه عيون مراض أو مصابيح قبل الانطفاء أو سيوف تميل بأيدى الكماة أو مواطئ الخيل على الصخور يتطاير منها اللظى .

وخليل مطران ، رسم قلعة بعلبك مسقط رأسه ، فعرض للنحت والصور والجنان المعلقات فى أسلوب بسيط سهل ، طريف . ووصف الأهرام فتعلّق بالعبرة أكثر من الصورة ، وامتلأ ديوانه بأوصاف كثيرة فى الورد والبنفسج والزنبقة ، فحلق فى معان كثيرة لم نرها لغيره :

وأفانين من شقيق ومن فلّ ومن مضعف ومن ريحانِ
كل ضرب شبيه سرب جميع مفرد عن لداته فى مكانِ
طال فيها تأملى وكأنى كنت منها فى روض عين حسانِ

وهكذا دفعه خياله لأن يشبه كل زهرة بحسناء فكأنه فى جمع منهنّ يتوخى شبيهاً لمعشوقته ، فإذا هى كما يقول فى قصيدته تشبه الزنبق فى طهرها ونقائها .

ووصف الشاعر سرباً من الغيد يصنعنّ حلوى العيد فيخرجن من كتل العجين بدائع بأيديهن ، وأناملهن مخضوبة بالدم لشدة حمرتهن ، وزنودهن كالعاج معرّقة بالزمرد ! .

وأتيح للشاعر أن يصور مشاهد من أرض الكنانة جميلة كمجنى القطن وصبيات المزارع يخطرن فيها متغنيات هازجات ؛ وصور مشاهد تاريخية بارعة فى قصيدته الكبرى « نيرون » فرسم حريق روما وحال الشعب الرومانى . ووصف المدن السورية واللبنانية فى ديوانه مثل زحلة والمعلقة وطرابلس الشام وحلب وبكفيا والحنشارة، وصور المشاهد الجميلة فيها . فهو بحق شاعر الشام ومصر فى ديوانه حين نفهم من ذلك وصف ما فى القطرين الشقيقين من معالم تاريخية ومناظر ساحرة .

ومطران وصف الطائرة مثل شوقى ، ولكنه وصف النياق والجرد العتاق ، وجعلها مزجاة بأجنحة غلاظ تزف زفيفاً ، وحين عرض للطيارين اللذين قتلا عليها قال :

هبط النسر بفـرخيه ومـا كان صيادهمـا غير القضاء

وأما حافظ إبراهيم فقد عرض للوصف فى شعره ، فرسم حوادث الزلزال فى مسّينا ووصف الشعب الإيطالى وما لاقى من عنت وعذاب ، وصور الطبيعة هائجة تغلى حقداً ، والأرض تبغى والبحر يطغى والجبال ترجم وتقذف بشواظ من مارج ودخان، فكأنه يستعير وصف جهنم من القرآن أو يوم القيامة حين تزلزل الأرض زلزالها . وهذا التصوير بديع يقول فيه :

بغت الأرض والجبـال عليهـا وطغى البحر أيمـا طغيـان
تلك تغـلى حقداً عليهـا فتنـ شق انشقاقـاً من كثرة الغليان

فقد وصف نكبة الطليان بالزلزال كما وصف مطران نكبة الطليان بحريق رومة وجنون نيرون ، ولكن بأسلوب مختلف أخذ صورة من الشعر القديم ومتانته من روعة اللغة التى نعرفها لحافظ .

ووصف حافظ سفينة فى البحر رحل عليها إلى إيطاليا فصورها تترامى

فى المياه بصدرها لاتبالى بالموج أو بالصخور، تعلو تارة وتهبط أخرى ، وشبهها بالسيل وبجواد يسعى إلى الطعان :

وعليها نفوسنا خائـــرات جازعاتٌ كادت شعاعاً تطير

فى ثنايا الأمواج والزبد المنـ ـدوف لاحت أكفاننا والقبورُ

ثم قال إنّ نفوس الركب جازعة خائرة تطير شعاعاً من الرعب فى قلب الأمواج ، والزبد كالقطن المندوف كأنها أكفان تهيأ وقبور تفتح ، وهذه معان جميلة تقلّبت على لسان حافظ فى أوصافه ، اعتمد فيها حيناً على القدماء واخترع حيناً بلطف حيلته وجميل عرَضه . أما الخمر فقد عصرها من خد النجم تارة ومن خدود الملاح أطواراً ، وذكر قدمها قبل نوح ، وتعلّق بمعانى أبى نواس وغيره من العباسيين ، فطلب من غلامه أن يسقيه حتى لا يطيق الكلام إلا بهمس ؛ وساقيه رشأ لطيف تنطق عيناه بالسحر ، وخمره حفظت فى الصهاريج منذ بابل وأقامت فى جوف الدنان المظلمة ، وهذه كلها معان عتيقة قتلها الشعراء ترديداً .

ووصف عباس محمود العقاد النيل ، والرياض ، والتاج ، والنار ، والبدر ، والشتاء، والعقاب ، والكروان ، والصحراء ، واتخذ أكثر شعره فى الوصف ، وحاول أن يقلد الغربيين وأن يبتعد عن الشعر المصرىّ المعاصر ، ولكنه وقع كثيراً فى معانى القدماء ، قال يصف السينما :

بربك ماذا فى ستائـــرك الطلس أأشباح جن تلك تظهر للإنس؟

إذا لم تكن جنًّا فما لى عهدتها تفر فرار الجن من طلعة الشمس؟

فعاد فى وصف العجائب إلى الجن كما عاد النابغة وغيره إليها حين وصفوا القصور المدهشة والآثار العظيمة ، ورسم الستائر طلساً كذئب النابغة والبحترى والفرزدق ؛ وله فى صوت الكروان وعيشه صور جميلة حية لا تنسى .

وأما على محمود طه فقد وصف سفينة الجندول والحسناء التى لقيها عليها ،

فصوّر عاطفته وحنينه إلى مصر وأهلها كما صوّر شوق قصور الأندلس والحمراء ، فتحركت الأشواق وسكتت الأاوان وخفيت الأشكال فى كثير من صوره . وبعضها يحمل طابع الإبداع والتجديد ، ولو أن العمر امتد بالشاعر لأمد الوصف بكثير من روائعه .

وتعلّق بعض الشعراء فى المهجر ولبنان ومصر بالوصف اللفظى ، كفوزى المعلوف وشفيق المعلوف والقروىّ فراحوا يمنحون الكلمات صوراً مجنحة — إذا صح التعبير — أو يكسون الموصوفات من خيالهم أشكالا تطير بالسامع إلى جوّ طريف وتنقله إلى حيث يريد الشاعر ، وقد رأينا بعض اللحون والأهازيج فى ديوان على الجارم حين يقول :

ومزامير أطلقت من فم السحـ ... ـر فمادت لها رواسى الجبال
ورنتْ كل سرحة تسرق السّمْـ ... ـع وتعطو بغصنها الميــال(١)
وأهازيج ردّدتْهـــا الأزاهيـ ... ـر وغنى بهـــا نسيم الشمال
ذهل الشعر فاستفـــاق فألفى ... موكباً حفّ بالسنـــا والجلال

وهذه صور جميلة ، فالمزامير تغنى وتميد لها الجبال الراسية والشجر يسترق السمع ويتطاول الغصن الميال، والأغانى تردّدها الأزاهير فتسرى مع النسيم ، وسحر الشعر بجمال الأنغام وذهل برائع الألحان، ثم استيقظ فراعه موكب السنا والجلال .

وقد سار بعض شعرائنا على هذا النمط يعيرون اللفظ أجنحة من الوصف لعلها تكون لوحات رائعة التصوير والرسم ، تصف النفوس والقلوب والمشاعر ، وترسم الطبيعة . وإليك لوحة رسمها إلياس أبو شبكة للنجوم :

كأنّ النجوم الضئيلة فى الأفـ ... ـق رشح خمور على خابيهْ
كأنّ النجوم زفير خطايا ... تصعّده ليلة زانيــهْ

---

(١) السرحة : الشجرة — تعطو : ترفع رأسها وتتطاول .

وقد شهدنا فيما تقدم وصف شعرائنا للنجوم، ولكننا لم نعهد تشبيهها برشح الخمور على خابية أو بزفير الخطايا من امرأة زانية . وما دمنا فى رسم الطبيعة فلنسمع إلى بشارة الخورى يصف جبل صنين بلبنان :

وأبو الربى صنّين قام كشمعـــة بيضاء تمعن فى السحاب وترتقى
يتوقّد النجـــم السنىُّ برأسهـــا فترى بوادر دمعهـــا المترقرق

وهكذا رسم الثلج فوق صنّين كشمعة تناطح السحاب وفى رأسها نجم سنىّ يتوقد فتسيل الشمعة أسى وتبكى دموعاً . ووصف الشاعر الأخطل خمره فأبدع فيها حين قال :

يا ذابح العنقود خضّب كفّه بدمائــه بوركت من سفّاح
أنا لست أرضى للندامى أن أرى كسل الهوى وتثاؤب الأقداح !
أدب الشراب إذا المدامة عربدت فى كأسها أن لا تكون الصاحى !

وطبعى أن نجد بوناً شاسعاً بين معانى أبى نواس ومعانى الأخطل الصغير فى لبنان ، فقد ضربت الأيام وتقلّبت على أدبنا مدارس ومذاهب أفاد منها شعراؤنا المعاصرون ، فجعلوا ذبح العنقود والدماء تسيل منه والسفاح لعاصر الخمر ، أما فراغ الأقداح فتثاؤب وملؤها عربدة ! وهذا جديد فى الوصف ، يدفعنا إلى الأمل بأن أدبنا يشدّ إلى آفاق جدجدة .

وعكف كثير من الشعراء المعاصرين فى مصر والشام على وصف الرقص والمراقص ، فأبدع منهم فيها الشاعر خليل مردم بك حين صور الأجساد متلاصقة حتى ما يخلص الماء من بينها من فرط اعتلاق ، وكأن الفتى يحمل ثديى فتاته لشدة القرب حين الرقص . وعمد هذا الشاعر إلى المآذن والنيران والثلوج والجبال والأنهار فجلا رسومها على شكل جديد فيه حنين وعاطفة ودقة تصوير . وتبعه كثير من الشباب فى محاولاته ، وستؤتى هذه الخطوات أكلها إذا تعهدها النقاد وأخلص لها مؤرخو الأدب ؛ وهم سيضيفونها إلى ثروتنا القديمة

فى الوصف خلال أربعة عشر قرناً من المشرق إلى الغرب ، لأنها ستكوّن متحف الوصف العربى .

وسيكون للوصف حينذاك صورة يحلّق معها الشاعر بالألوان والأصباغ والظلال كما انعكست فى نفسه من حزن أو فرح وحركة أو جمود ، وسيصبح للشعر العربى متحف جميل فيه الحيوان والإنسان والطبيعة الميتة من قرية أو قصر أو كوخ أو بستان أو وجوه الناس ، أو مناظر الأسرة والبيت ومشاهد الأب والأم والأولاد ، وصور البؤس أو الفرح فى المصانع والمعامل والشوارع والبيوت ، فى المدينة والريف ، تنطق كلها بنفسية الشاعر وتعبر عن روحه ، فيتأثر بها القارئ ويذهب مع الشاعر إلى الأفق الذى كان يحلّق فيه ويدرك أهدافه ومراميه ، ويبصر بعينه التى كان يرسم بها ، ويحسّ بروحه التى كان يحلّق معها ، وهذا هو الفن الموفق ، والوصف المجوّد ، والخلود فى الشعر .